مجلة الاتحاد العربى للنشر العلمى
الإصدار الأول
المجلد (١) العدد (١)
٢٠٢٠ (١-٥)

United Arab Scientific Publishing Company

مجلة الاتحاد العربى للنشـــر العلمـــى

نخبـــــة لا بورجوازيـــة

ميلود بوغرارة
كلية الآداب والعلوم الانسانية سايس/فاس
نشر إلكترونياً بتاريخ:١ يناير ٢٠٢٠ م

الملخص

إن الحديث عن الطبقة البورجوازية في المجتمع المغربي، يكتنفه الكثير من الغموض والاضطراب، فقد تراوحت كتابات المؤرخين والسوسيولوجين المغاربة وكذلك الأجانب بين من ينفي وجود طبقة بورجوازية مغربية خلال القرن ١٩ وغياب المعايير الأساسية التي يمكن من خلالها مقارنة المغرب مع أوربا فيما يخص الموضوع، وبين من يقر وإن بشكل غير جلي بوجود فئة متميزة في الأوساط الاجتماعية لبعض الحواضر المغربية سواء من حيث الأدوار، أو من حيث الوظائف التي قاموا بها داخل المجتمع المغربي، إلى حد يمكن القول أن إرهاصات فئة جديدة قد بدأت في الظهور.

الكلمات المفتاحية

(الطبقة البورجوازية – المؤرخين– اللغات الأنجلوساكسونية)

Abstract :

Discussions about the bourgeoisie in Moroccan society are shrouded in ambiguity and confusion. The writings of Moroccan and foreign historians and sociologists have ranged from those who deny the existence of a Moroccan bourgeoisie during the 19th century, and the absence of basic criteria by which to compare Morocco with Europe on this subject. Those who acknowledge, albeit vaguely, the existence of a distinct class within the social milieu of some Moroccan cities, both in terms of their roles and the functions they performed within Moroccan society. To the extent that it can be said that the beginnings of a new class have begun to emerge.

Keywords :

(Bourgeoisie - Historians - Anglo-Saxon languages)

_إن ما يثير الغرابة والاندهاش، هو ذلك الانزلاق الذي وقع فيه الكثير من المؤرخين، بإسقاط مصطلحات ومفاهيم دخيلة على مجتمع مغربي تقليدي محافظ لا مجال للمقارنة بينه وبين المجتمع الأوربي، مع العلم بأن كل هذا منافي لعلم التاريخ الذي يحتم على المؤرخ أن يتجنب تسمية أجناس البشر بغير ما كانوا يسمون أنفسهم به، ويجتهد في ذلك قصد إدراك طبيعة أنظمتهم، وأن يقارن بينها وبين تجارب الأمم الأخرى، فيميز بين المنفرد منها وبين ما قد يعتبر أصلا مشتركا، قبل إسقاط المصطلحات والمفاهيم في غير مكانها وزمانها.

ومن هذا المنطلق أتساءل هل يحق لنا أن نستعمل مصطلح "البورجوازية" لوصف هذه الفئة التجارية قبل الحماية؟

كثرت الدراسات التي عالجت الموضوع وانتهت إلى مواقف مختلفة بشأن وجود أو انتفاء طبقة بورجوازية مغربية قبل الاستعمار، وبلغت هذه الآراء درجة من التضارب يستحيل معها وجود خيط ناظم يمكن من إيجاد صيغة توفيقية بينها. فمن المدافعين بحماس عن وجود بنى مجتمعية اقتصادية هيأت شروط بورجوازية حضرية في المغرب قبل الاستعمار، هو ذلك العنوان الذي اختاره " نورمان سيكار" لمقاله ، فحاول من خلاله تبرير وجود بورجوازية فاسية قبل الاستعمار وفق مقاساته ومنظوره هو، لا كما يفترض التأصيل النظري للمفهوم احترامه، تجنبا للإسقاط. فيقول في بداية مقاله "وسنركز اهتمامنا هنا على بورجوازية مغاربية محلية هي بورجوازية فاس، التي نشأت قبل أن يضطر المغرب إلى الخضوع للحماية الفرنسية-الإسبانية عام ١٩١٢ أو حتى قبل أن ينفتح المغرب على التأثير الأوربي الكبير، وبالرغم من أن البورجوازية قد نمت أيضا في مناطق أخرى من المغرب فإن البورجوازية الفاسية كانت تفوقها عددا وقوة اقتصادية". غير أن ما يثير الاستغراب في دراسة نورمان سيكار الآنفة الذكر هو الاعتراف الصريح للباحث بانتفاء شروط ظهور بورجوازية على الطراز الغربي داخل المجتمع المغربي، ومع ذلك أجهد نفسه في إيجاد مسوغات الحديث عن بورجوازية فاسية ذات أصول تاريخية إذ يقول: "وبالرغم من وجود عدة عناصر شجعت على ظهور البورجوازية فإن التجار الفاسيين، وهم على ما كانوا عليه من رقي ونشاط قبل ظهور الدولة العلوية، لم يكونوا يشكلون جماعة متماسكة واعية بذاتها، فأحرى أن ينتظموا سياسيا حتى يدافعوا عن مصالحهم في مواجهة الحكومة المركزية أو قطاعات المجتمع الأخرى" . ثم يحاول تعليل الأمر مسترسلا في كلامه "ويمكن تفسير عدم تطور هؤلاء التجار إلى جماعة –كما كان الشأن في أوربا- بغياب تنظيم داخلي فعلي، أو إطار ذي طبيعة قانونية أو اقتصادية. "

لقد وقع نورمان سيكار في حديثه عن تكون بورجوازية مغربية قبل الاستعمار في الكثير من التناقضات وهو الاتجاه الذي ذهب عبد الله العروي عكسه أثناء تفحصه بإمعان أوضاع المغرب، وتطور بنياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وطرح إشكال حول هل يمكننا أن نتكلم عن طبقة بورجوازية مغربية؟

ليتوصل في الأخير إلى أن الشروط القائمة لم تسمح بإنتاج رأسمالية حديثة ولا طبقة بورجوازية. فأوربا الاستعمارية هي التي أعارته هذه الطبقة، لكن بشروط، أما ما سبق ذلك فلم يكن سوى مبادرات فردية لم ترق إلى ما عرفته المدن الإيطالية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لكن عبد الله العروي رغم أنه ينفي وجود بورجوازية في المغرب قبل الحماية فإنه لم يتوقف عن استعمال المصطلح كغيره من المؤرخين لوصف هذه الفئة فيقول " لقد أدلت البورجوازية المخزنية بدلوها في المؤامرة السياسية" ويتكلم في نفس الصفحة عن " الرابطات البورجوازية والرابطات الشعبية ."

لقد تساءل إبراهيم بوطالب في مقال له تحت عنوان "مفهوم البورجوازية في تاريخ المغرب" عن أحقيتنا في استعمال هذا المفهوم لوصف التشكلة الاجتماعية الحضرية في تاريخ المغرب قبل الحماية، ومتى يمكن اللجوء إلى هذا المفهوم بدون حرج؟ منطلقا في تحليله إلى من سبقوه لمعالجة الموضوع، ليخلص في الاخير إلى التنبيه بأن ما في استعمال مصطلح البورجوازية في تاريخ المغرب قبل الحماية من مخاطر الأناكرونية واستعمال المصطلحات في غير زمانها أو في غير مكانها المفضي بالباحث إلى الخروج من حيز العلم إلى حيز الخيال. مؤكدا في ذلك إلى أن لفظ البورجوازية يوحي بأحوال وبتقلبات لم يكن منها شيء في مجالنا قبل الحماية. فلماذا إذن استحالة قيام بورجوازية قبل الحماية في المغرب؟ وما هو المقياس المعتمد من أجل التصنيف؟

لفظ البورجوازية كما هو معلوم مشتق من لفظ "بور" بالفرنسية Bourg أو "بورك" باللغات الأنجلوساكسونية Burg أو "بوركو" باللغات المشتقة من اللاتينية كالإيطالية والإسبانية والبرتغالية Burgoومعناه القرية الممتدة أو الحاضرة وسكانها هم البورجوازيون، Bourgeois]بالفرنسية Burgerبالألمانية (مع لزوم الانتباه إلى أن اللفظ في الألمانية يحمل المعنيين فهو المواطن البورجوازي بحسب السياق) و Burgessبالإسبانية. [

ما يثير الانتباه أن الإنجليزية تفضل كلمة Freeman أو الإنسان الحر لترجيحها المفهوم التاريخي الواسع على المفهوم الجغرافي الضيق لكلمة بورجوازية التي لا تفيد سكان المدن وحسب، وإنما تفيد معنى مضافا فهي مشحونة بالدلالات، وهو مفهوم صيغ في القرن الوسطى الأوربية يوم كان المجتمع هناك تحت هيمنة الفيوداليين المالكين للأراضي والمستخدمين للفلاحين، فكانت الفلاحة هي أساس الإنتاج وكان من نتائج الصراع بين الفيوداليين وأقنانهم أن تولدت من ذلك طبقة جديدة تشكلت من كل من كان يفر من القهر الفيودالي، أو يأتي غريبا من أبعد الآفاق كاليهود مثلا، فكان هؤلاء جميعا يلوذون بالمدن والقرى فيتحصنون من وراء جدرانها ويرتزقون من التجارة والصناعة التي كان الفيوداليون في حاجة إلى منتجاتها، لذلك كانوا يتنازلون لسكان المدن عن بعض الحقوق ويغضون الطرف عن حرياتهم (Franchises)بأوفاق مكتوبة وعقود مضبوطة، وكانت أسماء بعض المدن واضحة الدلالة التاريخية مثل Ville Franche في فرنسا و Freiburgفي ألمانيا، لكن بمجرد انهيار صفوف الفيودالية مع بزوغ

فجر العصر الحديث من جراء تناقضاتها الذاتية وصراعاتها مع العرش على السلطة فإن صفوف البورجوازية تعززت على النقيض من ذلك بفضل ازدهار التجارة الأوربية وانتشارها عبر العالم، فتكدست الأموال في صناديقها وفي ما أنشأته من أبناك وسارت بخطى سريعة نحو الثورة الصناعية والثورة السياسية، فسيطرت منذ القرن السابع عشر في هولندا وإنجلترا. ومنذ القرن الثامن عشر في فرنسا والولايات المتحدة على أرقى ما صار يكتشف من وسائل الإنتاج وعلى مقاليد الحكم، ولما تمت لها السيطرة على أسواقها الوطنية كان من الطبيعي أن تتشوف إلى السيطرة على أسواق المعمور كله، فكانت الحركات الاستعمارية وكان التوسع الإمبريالي في القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠.

البورجوازية بعبارة وجيزة هي تلك الطبقة الحرة الأوربية التي انتزعت من الفيودالية أول الأمر مجال المدن التي كانت تنشئها إنشاءا في كثير من الحالات وتستوطنها في عزة وإيباء، ثم أنها الطبقة التي سيطرت بعد ذلك على أسواق المملكة وجعلتها حكرا عليها وتربعت بإثر ذلك على كراسي الحكم ومسكت بأيادي حكيمة بزمام الأمور باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان وما إلى ذلك من الشعارات .

ولعل من أهم مميزات البورجوازية الأوربية أنها نشأت على المسؤولية، فهي التي أقامت أسوار المدن يوم كانت في حاجة ماسة إلى الاحتماء، وهي التي أطاحت بها يوم خرجت لاكتساح السوق العالمية بعدها، أما في المجال المغربي فمن علامات انعدام البورجوازية أن إحداث المدن وبناء أسوارها كان من مبادرات السلطان.

نعتقد أن لا داعي للمقارنة، فالبون شاسع في مسار سيرورة التطور التاريخي بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط الشمالية والجنوبية، فيكفي أن نتوقف عن التبعية التي ظلت تعاني منها هذه الفئة التجارية المغربية التي يطلق عليها في الكتابات التاريخية والسوسيولوجية بالطبقة البورجوازية، وبالتالي فقدانها للحرية التي تعد سمة من سمات البورجوازية الأوربية. فتاريخيا، وجدت النخبة التجارية المغربية في وضعية تبعية مزدوجة: تجاه الدولة وتجاه الخارج، فقد كانت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر فئة تجارية استفادت من الوضع المتميز للمغرب كحلقة وصل بين إفريقيا وأوربا، وكانت هذه الفئة محتاجة إلى الدولة، لتتمكن من توسيع ممارساتها التجارية التي كانت المصدر الرئيسي للاغتناء وتراكم الثروة . وبعد فترة طويلة ومع انفتاح المغرب على الخارج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما نتج عنه من تغيرات اقتصادية واجتماعية وسياسية، بدأت هذه الفئة تغير تحالفها بربط علاقات مع الأجنبي وطلب حمايته، وبالتالي يمكن القول بأن هذه الفئة التجارية النشيطة لم تتمكن قبل فترة الاستعمار في تكوين قاعدة اقتصادية خاصة بها، ومن ثم فقد كان وجودها مرتبطا بكرم الدولة وبالعناية التي تتلقاها من الأجنبي، فالارتباط المصلحي الآني مع السلطان والأجانب، ساقهم إلى اتجاه البحث السريع عن الثراء ونيل الحظوة لقطع الطريق عن الفئات المجتمعية الأخرى.

فلا داعي إذن لاستعمال مصطلح "البورجوازية" لوصف هذه الفئة قبل فترة الحماية لما يحمله من مخاطر الأناكرونية، فلكل لفظ مكان وزمان خاص به في علم التاريخ، وإلا سوف نخرج من حيز العلم إلى حيز الخيال في ظل هذا الانزياح اللفظي، لذا يجب على متخصصي السوسيولوجيا وعلم الاصطلاح « Terminologie »والمؤرخين إيجاد مصطلح بديل يشير إلى مفهوم دقيق ومحدد في هذا السياق لهذه الطبقة التي تجمع بين ملامح الإقطاعية القديمة، والاندماج في الرأسمالية العالمية الحديثة، مع غياب لأي دور إيجابي تنويري نهضوي يؤثر في المجتمعات على المستوى الفكري والثقافي.